

ملك بابل المهيب

إعداد ورسوم
زكريا كايا

دار الكتب العلمية

مَلِكُ بابلَ المهيب

في قديمِ الزّمانِ، وسالفِ العصرِ والأوان، كان يعيش على أرض العراق شعبٌ نشيطٌ، بنىٰ مُدناً جميلةً وحصينةً، وقصوراً كبيرةً وفارهةً، وزرعَ أنواعاً عديدةً من الحُبوب، وغرسَ الكثير من الأشجار المُثمرة، وأبدَعَ فنوناً رائعةً، واخترعَ صناعاتٍ جَمَّةً، ونشرَ العلمَ، وأقامَ الأمنَ والطّمأنينةَ بين سائر أفراد الرعيّة، حتّى صارت جَنَبَاتُ النّهرين العظيمين الدِّجلة والفُرات حقّاً جنّةَ الإنسان الأوّل.

وعلى الضفّة الغربيّة لنهر الفُرات قامت مدينتان، واحدةٌ في الشّمال وتُدعىٰ «سيپار» ويحكمها ملكٌ متجبِّرٌ اسمه «ريم سين»، والأخرى إلى الجنوب منها وتُدعىٰ «بابل» كان قد اعتلىٰ عرشَها حديثاً ملكٌ شابٌّ اسمه «حَمُورابي».

جَنَحَ سكّانُ مدينة «بابلَ» إلى السِّلم وعمل الخير، وتوجّهوا للبناء والعمران والمعرفة، وعملوا على إقامة أحسن العلائق مع جيرانهم.

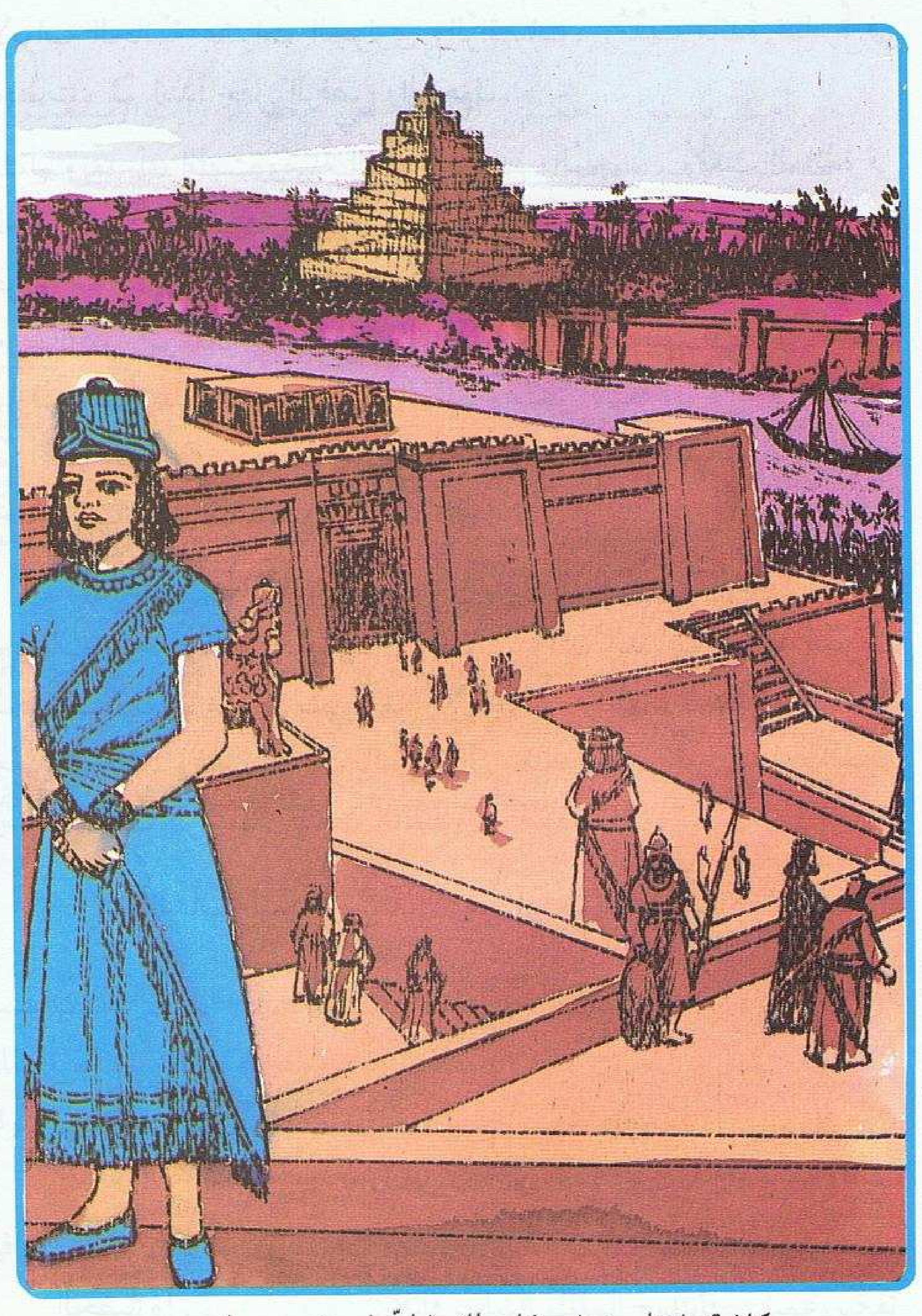
بينما جعل سكّان مدينة «سيپار» همَّهم الحربَ والقتالَ والغزوَ والسَّلبَ والنَّهبَ ليملأوا خزائنهم بالثروات. وصاروا مَضْرِبَ مَثَلٍ للأشرار.

وذات يوم، وبينما كان «ريم سين» ملك «سيپار» متربِّعاً على عرشه الفخم، إذْ بقائد حرسه يتقدّم منه ويُعلمه بقدوم موكبِ زائرٍ غريب، فأَمر بأَن ينتظمَ كلُّ شيء داخل القصر بما يُلقي الرّهبةَ والمَهَابة في نفس الوافد الزّائر، وأنْ لا يُسمح للموكب باجتياز أسوار المدينة إلاّ بعد أن تحتشد كتائبُ الجُنْد بالشّكل اللاّئق. وبعد أن تأكّد من تنفيذ أوامره بحذافيرها، استوى على عرشه مُصعِّراً خدَّه تيهاً وكِبراً.

وبعد حين دخل الموكبُ الزّائرُ إلى فناء قصر الملك وانفصلت عنه جماعةٌ يَمَّمتْ شطرَ عرش الملك يتقدّمها شابٌ بهيُّ الطَّلعة على سيمائه مَهابةٌ ووَقار. تقدّم الشّاب بخُطىً وئيدةٍ من عرشِ الملك وسْطَ سكون عميق حتّى بلغ أَدراجَ كرسيِّ العرش، فانحنىٰ مُحيِّياً بأَدبٍ جَمّ، ولكنّ الملك ظلّ جامداً ولم يُبْدِ حراكاً، مُتعمِّداً أن يوقِعَ الهلعَ في نفسِ زائره ويسلبَه إرادته قبل أن يبدأ الحديثَ معه. وبعد التحيّة، تلفّتَ الشّابُّ يُمْنَةً ويُسْرَةً مُتفرِّساً وجوهَ الحاضرين ولوَّح بأصبعه في الهواء، فتقدّمت ثُلَّةٌ من الرّجال الأَشدّاء، وأفرغتْ محتوىٰ صندوقٍ أمام الملك، وعادت من حيث انطلقت. فنهض الملك «ريم سين» مثل النّمر من مربضه وتقدّم من الهديّة الغريبة وراح يتأمّلها بدهشة وحيرة، ثمّ عاد إلى عرشه وجلس ولم يَفُهْ بكلمة.

صبرَ الشّابُّ على تصرّف الملك الأرعن الذي لا يليق بمقام الملوك، ثمّ نظر إلى الملك وقال:

- أيّها الملك المَهيب، قَدِمْتُ طامعاً في خَطْبِ مودّتك، طامحاً نَيْلَ صداقة شعبك الشّجاع، فرأَيتُ أنّ خيرَ هديّةٍ أحملها إليكم هي هذا اللّوحُ الحجريّ الذي نُقِشت عليه حروفُ الأبجديّة والتي هي سرُّ الحكمة والمعرفة.



كان قد اعتلى عرش بابل ملك شابّ اسمه «حمورابي» .

أشار الملك إلى ضيفه بالجلوس، ثمّ صفّق بكفّيْه، فدلفت من الأبواب الجانبيّة عشراتُ الجواري والرّاقصات، ومُدّتْ مائدةٌ عامرةٌ في لحظات، ثمّ ابتدأ حفل الرقص والمُجون.

وبعد أن انتهت وصلةُ الغناء والرّقص والمُجون، رُفعت المائدة في الحال. ثمّ لوَّح الملكُ بكفِّه في الهواء، فضجَّ المكان بالضوضاء، وامتلأ حركةً أسفرتْ عن وفودٍ أخذت تمرُّ صفوفاً وأرتالاً أمام الملك وزائره وهي تعرض كنوزَ المملكة وثرواتِها بشكلٍ يسلبُ الألبابَ ويبهرُ الأبصارَ. وعندما شارفَ النّهارُ على نهايته، نهض الملكُ وامتشق سيفَه ولوَّح به في الفضاء ثمّ أعاده إلى قِرابه، وجلس وراح يختلس النّظر إلى الشّابِّ الزّائر الذي أخذ يراقب المَشاهِد بكثير من اللاّمبالاة.

ثمّ اقتحم بهوَ العرش ثُلّةٌ من جبابرة المحاربين وأخذوا يقومون بحركاتٍ بارعةٍ وكأنّهم في ميدان القتال، وكان الشّابّ يراقب ضُروبَ الحركات ومهارةَ مؤدّيها بشيءٍ من الإعجاب. وانتهى الحفل بإيماءةٍ من جفنَي الملك، وغاب الرجالُ بالسّرعة التي قدموا بها، وفرغت قاعةُ العرش وساد الصّمتُ الرّهيب. التفت الملك إلى ضيفه وقال:

- أيّها الشّابُّ النّبيلُ، مَنْ أنتَ ومِنْ أيّ مملكةٍ قَدِمتَ؟

ردَّ الشّابّ برصانةٍ بالغةٍ وقال:

- أنا «حَمُورَابِي» ملك بابل...

نهض الملك الشّابُّ حمورابي وانحنى مرّةً أخرى أمام مُضيفه وقال:

- نعم، أنا هو «حمورابي» ملك بابل، ومملكتي دُرّةُ الشرق ومنارةُ الحضارة!...

وسَرَتْ في قاعة العرش ضوضاءُ لم تهدأ إلاّ عندما هتف الملك «ريم سين» وقال:

- أهلاً بالملك الحكيم. ألاَ قُلْ لي بعد أن رأيتَ وسمعتَ ما يُدهش الأُممَ والملوكَ، هل في الدّنيا من هو أعظمُ منّي وأكثرُ ثراءً؟!...

أجاب «حمورابي» قائلاً:

- أيّها الملك المَهيب، إنّ الكنوزَ والتّحفَ والثّرواتِ التي أَطلعْتَني عليها، هي حقّاً جميلةٌ ونادرةٌ ونفيسةٌ. والحفلُ التّكريميُّ والأبطالُ الشّجعانُ الذين أدّوا أدوارَهم بمهارةٍ فائقةٍ هم حقّاً أبطالٌ يستحقّون التّقديرَ، ولكنّي لم أجد بعدُ، بين كلّ ما رأتْ عينايَ أيَّ رمزٍ من رموز العَظَمة ولا مبعثَ فخرٍ للملوك. إنّ مجدَ الإنسان مرتبطٌ بأعماله.

دُهش الملك «ريم سين» مما سمع واستبدَّ به الغضب، ولكنّه كظَمَ غيظَه وأبدى بشاشةً لزائره، وسأله قائلاً:

- هَلاَّ تفضَّلَ الملكُ الحكيمُ وفسَّرَ لي مقالته ليهدأَ خاطري وأَقفَ على ما فاتَني؟!...

قال حمورابي:

- إنّ الثّرواتِ والكنوزَ رهنٌ لمن يملكُ أسبابَ القوّة، وهذه ليست بخالدةٍ في الحياة. وأمّا التُّحفُ النّادرةُ والفخامةُ التي أحاط الملكُ المُهابُ نفسَه بها، فهي تقصر عن مُحاكاة زينة ودقّة وجمال ألوان ريش طائرٍ ضعيفٍ، عَنَيْتُ الطّاووس.

امتعضَ الملك «ريم سين» من كلام الملك «حمورابي» وغرقَ في تفكير عميق. فابتدره الملكُ الشّابُّ قائلاً:

- أمّا اللّوحُ الذي أمامَك فهو سرُّ عظمة المَمالك والأُمم وحِكمةُ الأَزمان، فمَنْ ملكَ مفاتيحَ أسراره ملَكَ الخلودَ والعظمة.

نهض الملك «ريم سين» وقال:

- لِنُكْمِلِ الحديثَ عند المساء. أرجو أن تجد الرّاحة في ضيافتي.

وفي المساء، أُضيء القصرُ بمئات الشّموع الثمينة المُرتكزة على شمعدانات من الفضّة المُطعَّمة بالذّهب، واشتعل القصرُ كلُّه أنواراً وضياءً، ولكنّ ذلك لم يغيِّر من مزاج الملك «ريم سين» الذي بَدَا مُعكَّراً.

ولما امتلأ المجلسُ من جديد قال الملك «ريم سين»:

- قُلْتَ أيّها الملكُ الحكيمُ أموراً لم يجرؤ أحدٌ أن يقولَها أمامي من قبلُ قطّ، وأنا لن أُحاسبَك عليها إذا أعطيتني جواباً مُقنعاً عن سؤالي هذا: من هو أَسعدُ إنسانٍ في أيّامنا الحاضرة؟

قالها الملكُ وتَظاهَرَ بالفرح، متوقّعاً أن يسمع هذه المرّة من الملك الحكيم إطراءً له فيصفه بأنّه هو نفسُه أسعد إنسان، لأنّه يملك الجاهَ والثّروات والسّطوة.

ردَّ الملكُ «حمورابي» وقال:

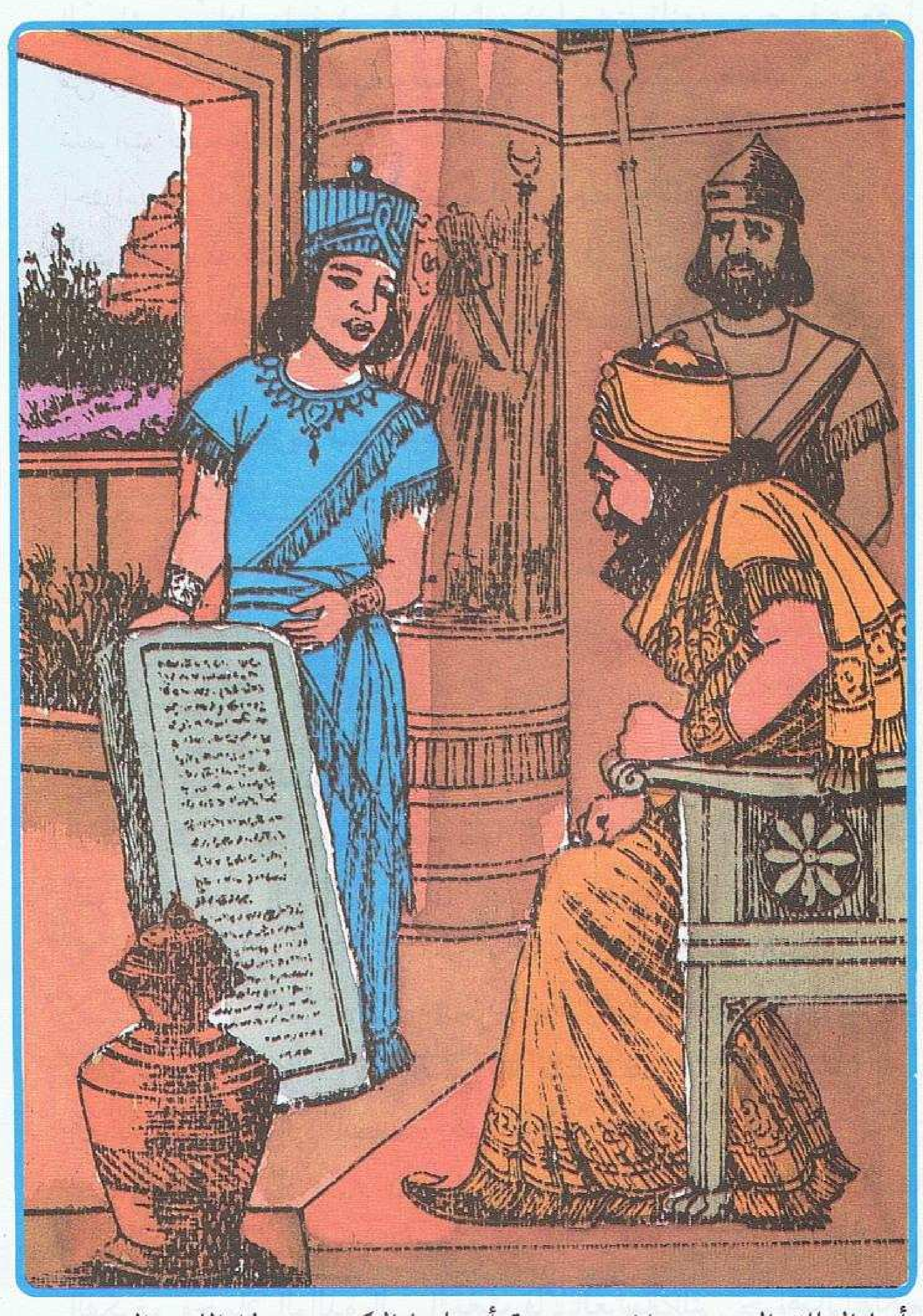
- أيّها الملكُ المُهاب، إنّ أسعدَ إنسانٍ عرفتُهُ هو فلّاحٌ فقيرٌ اسمه «غوديا».

استبدّ الغضبُ بالملك «ريم سين» ممّا سمع وهتف قائلاً:

- كيف يمكن لفلّاح فقير أن يكون أكثرَ سعادةً من ملكٍ مثلي؟

أردف «حمورابي» كلامَه وقال:

- أيّها الملكُ المَهيبُ، عاش «غوديا» مع زوجته وولدَيْه في كوخ



أيها الملك المهيب ، إن خير هدية أحملها إليكم هي هذا اللوح الحجـري .

متواضع على ضفّة نهر الفرات يكسَبُ قوتَه وقوتَ عِيَاله من صيد السّمك، ويُبادِلُ ما يفيضُ عن طعامه بحاجياتٍ تلزمه، ويصرفُ بعضاً من وقته في حَفْر الخشب وصنع التماثيل، ويُمضي معظم لياليه في سهراتٍ بهيجة مع أولاده وأحفاده. وقد نال بفضل حُسن أخلاقه احترامَ جيرانه ومعارفه. وعندما يُداهمُ الخطرُ وطنَه كان يستميتُ في الحرب دفاعاً عنه. وفي إحدى المعارك فاز بشرف الشّهادة بعد أن قاتل ببسالةٍ نادرةٍ. وصار «غوديا» رمزاً وطنيّاً خالداً في نفوس أسرته ومواطنيه.

وهنا ثارَ الملك «ريم سين» وصرخ قائلاً:

- لقد ذهَبْتَ بعيداً أيّها الملك الشّابّ!... كيف تجرؤ أن تقارن فلّاحاً فقيراً مثل «غوديا» هذا بي أنا، وقد عرفتَ مدىٰ جبروتي وفتكي في المعارك، ورأيتَ بأمّ عينك مقدار سلطاني وثروتي؟!...

أكملَ «حمورابي» حديثه بكثير من الهدوء وقال:

- إليكَ أيّها الملكُ المَهيبُ تتمّةَ القصّة. فقد حدث في أحد أيّام الأعياد التي، كما تعلم، تُقام فيها الاحتفالات أمام المعبد وتُقدَّم القرابين أثناءها إلى الآلهة، أن رغِبتْ أرملةُ «غوديا» في حضور هذا الاحتفال. وصدف أن أعار أحد ولديها الثّورَيْن لأحد الجيران كي يَحْرُثَ أرضَه، فشعر الولدان بالحَرَج أمام والدتهما التي يُكِنّان لها حبّاً جمّاً واحتراماً كبيراً. وبعد تفكير ومناقشة اتّفقا على أن يقوما بجَرِّ العَرَبَة بنفسَيْهما إلى المعبد، غير عابئَيْن بما يمكن أن يقوله النّاس عنهما وهما يقومان مقام الثّورَيْن في جرّ العربة، إرضاءً لوالدتهما ورغبةً في مساعدة الجار المُحتاج للثّورين في الحراثة. وبالفعل نفّذا الفكرة، وحملا الوالدةَ إلى المعبد في العربة التي جَرَّاها. ولكم

كانت دهشتُهُما عظيمةً عندما احتفى بهما النّاسُ احتفاءَ الأبطال! . . .

أطرقَ الملك «ريم سين» مليّاً وعلَّق قائلاً:

- أَوَتُهينُني وأَنتَ في ضيافتي؟! . . .

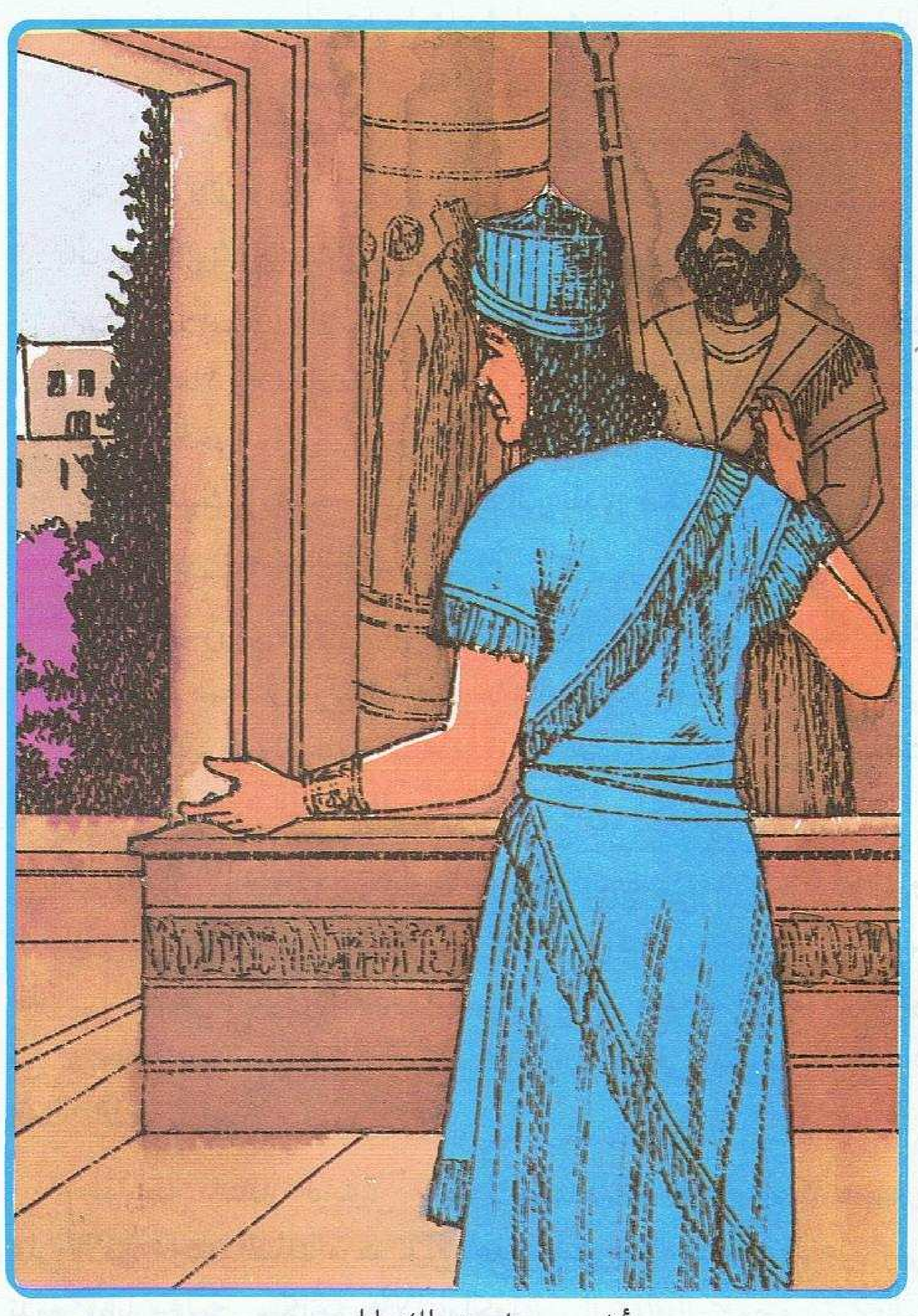
ردَّ «حمورابي» وقال:

- كلاّ أيّها الملك المَهيب. إنّما قصدْتُ أن أقولَ بأنّ الكنوزَ التي عرضْتَها أمامي والأُبّهةَ التي تحيطُ نفسَك بها، مَنْ يضمنُ لك استمرارها؟ وعندما تفقد ذلك كلّه هل تبقى سعيداً؟ الأَيام وحدها تُخبّىء الجواب! . . . ومرّةً أخرى أقدّمُ لك احترامي وأعرضُ صداقةَ شعبي عليك. واسمحْ لي أن أعود إلى بلدي صديقاً لك ولشعبك كما أَمِلْتُ حين قدِمتُ إليك! . . .

عاد «حمورابي» إلى «بابل» وقد أيقن بأنّ كلامه لم يعجب الملك المتجبّر، وأنّ مملكتَه سوف تتعرّض للانتقام عاجلاً أم آجلاً. فاجتمع إلى كبار مستشاريه وقرّروا اعتماد سياسة الدّفاع عن المملكة بكلّ ما ملكت أيديهم، مستخدمين الذّكاء والحيلة قبل أيّ شيءٍ آخر. .

وتوالت الأيّام وسكّان بابل ماضون في تحصين مدينتهم، فحفروا الخنادقَ العميقةَ وموّهوها بالأخشاب والتّراب، وفتحوا مجارٍ كثيرةً من نهر الفُرات يمكنها أن تُغرِقَ الخندقَ الكبيرَ في دقائق معدودة. وبعد أن فرغوا من استعداداتهم انصرفوا إلى حياتهم العاديّة إمعاناً في التّمويه على عيون العدوّ الذي يتوقّعون هجومه.

لم يَطُلِ انتظارُ البابليين، فقد لاحت طلائعُ جيش مملكة «سيپار» على الأفق. وكان الملك «ريم سين» على رأس جيشه الكبير وقد عزم على تدمير «بابل» وسَبْي سكّانها وإذلال ملكها.



أنا « حمورابي » ملك بابل .



هتف الملك « ريم سين » قائلاً : هل في الدنيا من هو أعظم مني ؟

وما إنْ لاحَتْ «بابل» للملك المُتجبّر «ريم سين» حتى أمر فوراً بالهجوم مستهتراً بقوّة البابليّين، الذين يعتبرهم أهلَ زراعةٍ وصناعةٍ وعلومٍ وفنونٍ، لا أهلَ حربٍ وقتال، غير منتبهٍ لما يمكن أن تستنبطَ عقولُهم النيِّرة من وسائلَ وحِيَلٍ ومكائدَ تفوقُ شجاعةَ الشّجعان وكثرةَ العديد والعَتاد. ولمّا وصل الجيشُ المستعجِلُ بالهجوم، إلى مقرُبةٍ من الأسوار، غارتِ الأرضُ من تحت أقدامه، فإذا بجنوده يسقطون أكداساً في خندقٍ رهيب. وما هي إلاّ لحظاتٌ حتى كانت المياه الغزيرة تُغرِقُ الجيشَ بأكمله. ولمّا انتبه «ريم سين» إلى الخديعة كان كلُّ شيءٍ قد انتهى. وفُتحت أبوابُ الأسوار، وأُقيمت الجسورُ، وهجم البابليّون على مَنْ تبقّى من فُلول جيش «سيپار» وأجهزوا عليهم، وساقوا الملك «ريم سين» أسيراً إلى الملك «حمورابي».

أمر «حمورابي» أن يُربطَ «ريم سين» إلى عمودٍ في ساحة بابل، وأن تُوقَد نارٌ عظيمةٌ أمامَه فيكتوي بلظاها على مهل، وأن ينقلوا إليه كلماتِه الأخيرةَ التي يتفوّه بها فور سماعها.

نفَّذ الجنودُ أمر ملكهم وأوقدوا ناراً عظيمة، وشدّوا وثاقَ «ريم سين» إلى عمود. وراحت ألسنةُ النّار تتصاعد إلى السّماء ويلسعِ لهيبُها جسدَ «ريم سين». وعندما أيقن الملكُ أنّه هالِكٌ لا مَحالةَ، صرخَ يقول:

- لقد صدقَ ملِكُكُم، إنّ «غوديا» أسعدُ إنسانٍ في بلاد الرّافدين!

ولمّا بلغ الخبرُ «حمورابي» الذي كان يرقُبُ المشهدَ من شُرفة قصره، أمر بإحضار «ريم سين» إلى قصره وتضميد جراحه.

ولمّا تماثَلَ «ريم سين» للشّفاء، مَثُلَ أمام الملك «حمورابي» وبادره بالقول:

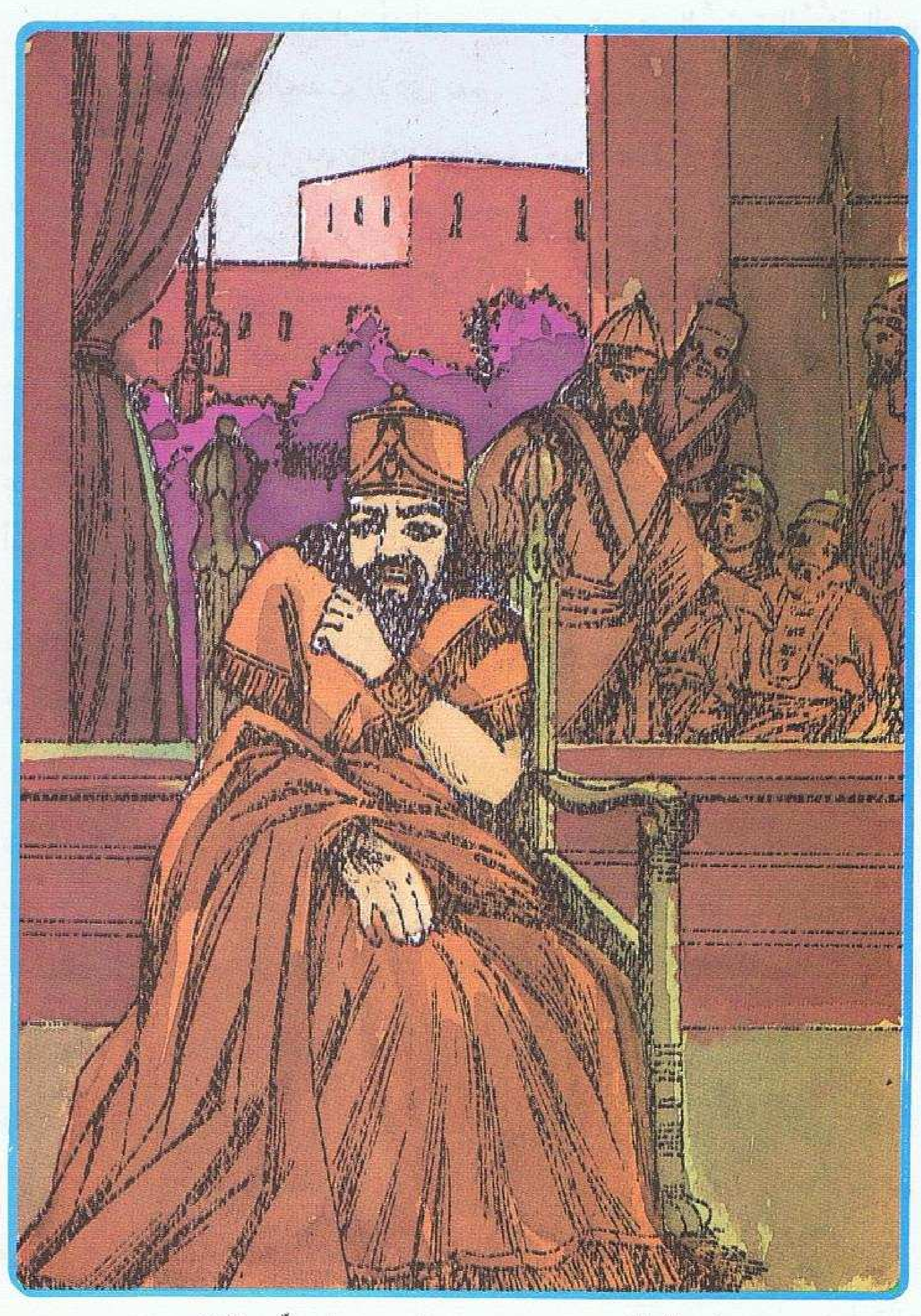
لقد صدقتَ أيّها الملك الحكيم، فأنا لم أفقد ثرواتي وسلطاني وهيبتي فحسب، بل لن أُخلِّف بعد موتي سوى السِّيرة السّيِّئة التي لعنها جميعُ مَنْ ألحقتُ الأذىٰ بهم.

ردَّ الملك «حمورابي» قائلاً:

- بل ستكونُ أمامَكَ فرصةٌ لتُصلحَ ما أَفسَدَه غرورُك وجبروتُك. فأنت ستعود ملكاً على «سيپار» مرّةً أخرى. وهذه المرّة لا إخالُك رافضاً قبولَ صداقتي وصداقةَ أهل «بابل» ليعيش شعبانا بسلام وطمأنينة.

وهكذا اتَّعظَ الملكُ المتجبّر «ريم سين»، وعاد إلى «سيپار» ملكاً عاقلاً وعادلاً. ومضى حمورابي يقيمُ صروحَ الحضارة. واشتهر في أواخر أيّامه المديدة بأنّه أوّل واضعٍ لشرائع حقوق الإنسان.

***



دهش الملك « ريم سين » مما سمع واستبدّ به الغضب .



الملك الأسير « ريم سين » يقف مقيداً أمام الملك « حمورابي » .

1. نابغة مملكة سبأ
2. كنوز كهف الحكمة
3. أسرار غمام ديلمون
4. عندليب الغيب
5. ملك اليمن السعيد
6. أمير العمالقة
7. السياف الدمشقي
8. ملك بابل المهيب

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣
هاتف وفاكس: ٠٠/١٢١٢٤٧٨١٣٧٣ 00/1212 4781373